« الخلاف في نشأة الصرف » .

بقلم : د . أبو زهراء

يذهب بعض أهل اللغة إلى أن أول من وضع الصرف هو معاذ بن مسلم الهرّاء النحوي . المتوفى . . بين ١٨٧ ـ ١٩٠ هـ ـ على خلاف في تأريخ وفاته . وكان من المعمّرين حتّى قيل فيه :

إنّ معاذَ بن مسلم رَجُلٌ ... قد ضجَّ من طولِ عُمْرِهِ الأبَدُ
يا نَسْرَ لُقمان كم تعيشُ وكَمْ ... تأكلُ طولَ الزمانِ يا لُبَدُ
مُصَحَّحاً كالظليم تَرفُلُ في ... بُرْدَيْكَ منك الجبينُ يتَّقِدُ
فاذهبْ ودعنا فإنَّ غايتَك الْـ ... ـمَوْتُ وإنْ شدَّ دُكنَك الجَلَدُ

وقيل إنَّه عمّر مائة وحمسين سنة ، وحكاية طول عمره هذه لها تعلّق فيما سنورده من الروايات التي وردت وعُدّت سبباً لنشأة الصرف .

وقد نقل بعضهم الإجماع على أنه أول من وضع التصريف ، وممن نقل إجماع العلماء عليه ابن مالك أبو عبدالله محمد جمال الدين الطائي المتوفي سنة

٦٧٣ هـ . وتابع ابن مالك في ذلك السيوطي جلال الدين المتوفي سنة ٩١١ هـ ونقل نَصَّين في هذا الشأن .

الأول : في الإقتراح[١] قال فيه : « واتفقوا على أنّ معاذاً الهرّاء أوّل من وضع التصريف » .

والثاني : في البغية[٢] حيث ذكره ضمن ترجمته لمعاذ فقال : «وُلد أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أبو مسلم مؤدّب عبدالملك بن مروان قد نظر في النحو ، فلمّا أحدث الناس التصريف أنكره ، فقال :

قَدْ كان أخذُهُمُ في النحو يعجبني ... حتّى تعاطَوا كلامَ الزنجِ والرّوم
لمّا سَمِعْتُ كلاماً لستُ أفهمُهُ ... كأنّه زجلُ الغربان والبومِ
تركتُ نحوَهُمُ واللّهُ يعصِمُني ... من التقحُّم في تلك الجراثيمِ

فأجاب معاذ هذا :

عالجتَها أمردَ حتّى إذا ... شِبْتَ ولم تُحْسِنْ أبا جادِها
سَمّيتَ من يَعْرِفها جاهلاً ... يُصدرها من بعد إيرادها
سهّل منها كلّ مستصعَبٍ ... طَوْدٌ علا أقران أطوادِها

وكان أبو مسلم قد جلس إلى معاذ فسمعه يقول لرجلٍ : كيف تقول من تؤزّهم أزّاً » : يا فاعلُ أفعلْ ؟ فقال له الأبيات السابقة . ذكر ذلك كلّه الزبيدي[٣] .

قلتُ : ومن هنا لمحتُ أنّ أوّل من وضع التصريف معاذ هذا « وقد أورد هذه القصة مع الأبيات كثيرون غير ابن مالك وابن فارس والسيوطي منهم الزبيدي في كتابة « طبقات النحويين » وابن النجّار في « تاريخ بغداد » وابن خلكان في « وفيات الأعيان » ، والدميري في « حياة الحيوان » وغيرهم كثير . كلّ هؤلاء ينسب وضع علم الصرف للهرّاء .

إلّا أنّ المتتبّع للروايات الأُخرى المخالفة لهذه الرواية لا يجد بذوراً لعلم

التصريف سابقة لمحاولات معاذ الهرّاء ، وتلك البدايات الأُولى تواكب نشأة النحو على يد أبي الأسود الدؤلي ، حين وضع له الإمام علي باباً من أبواب الصرف وهو « باب الإمالة » ، إضافة إلى ذلك ، فإن أبا الأسود الدؤلي نفسه عالج إبدال الحروف ومخارجها ، والإبدال موضوع من الموضوعات الصرفيّة ، بل هناك من ألّف كتاباً في الهمز ، وأملاه على تلامذته ، وهو ابن إبي إسحاق المتوفّي سنة ١١٧ هـ ، وهذا يعني أنّ هناك بذوراً لنشأة النحو سابقة لما أسهم فيه معاذ من إسهامات في مرحلة التأسيس ومرحلة التطور لعلم الصرف ، ولم يكن هو الأوّل في عملية الوضع .

إضافة إلى ذلك فإن كثيراً ممن ترجموا لمعاذ ذكروا أنه كان تلميذا لأبي الأسود الدؤلي ، والإجماع قائمٌ على أن أبا الأسود أوّل من وضع علم النحو بعد أن ألقى إليه الإمام علي الصحيفة المشهورة . فلم لم يكن معاذ قد أخذ الصرف عن أبي الأسود الدؤلي وطوّره ؟ .

ومما يؤيد هذا الفرض رواية ينقلها الزبيدي ، وابن النديم ، والقفطي ، عن ابن أبي سعد الورّاق قال : « حدّثنا عليّ بن محمود الهاشمي قال : سمعتُ أبي قال : كان بدء ما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو ، أنّه مرّ به سعد ـ وكان رجلاً فارسياً قدم البصرة مع أهله ، وكان يقود فرسه ـ فقال : مالك يا سعد ، ألا تركب ! فقال : فرسي ضالعٌ . فضحك به من حضره . قال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه ، وصاروا لنا أُخوة . فلو علّمناهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول » . وهذه الرواية وروايات أُخرى كلّها تؤيد أن واضع النحو هو أبو الأسود ، ولعلّ كل أحداث تلك الروايات قد حدثت فعلاً ومجموعها دفع أبا الأسود أن يهرع إلى الإمام علي ليضع له البداية الأُولى في النحو . إلّا أن الذي يلفت نظرنا ، في قصة الرجل الفارسي وقوله «ضالع » بدل « ظالع » أنّ هذا التغيير الذي أضحك أناساً وحرّك الغيرة والحميّة على الإسلام واللغة العربية لدى آخرين ، أقول هذا التغيير إنما هو من مسائل

التصريف ، لأنّه يبحث في التغيرات الطارئة على بنية الكلمة بخلاف علم الإعراب الذي يبحث في التغيرات الطارئة على آخر الكلمة .

وهناك رواية أُخرى يوردها أبو الطيّب اللغوي في مراتب النحويين قال : أخبرنا محمد بن يحيى قال : أخبرنا محمد بن يزيد عن الجرمي عن سيبويه عن الخليل « قال : لم يزل أبو الأسود ضنيناً بما أخذه عن علي ، عليه السلام ، حتى قال زياد : قد فسدت ألسنة الناس . وذلك أنهما سمعا رجلاً يقول : سقطت عصاتي ، فدافعه أبو الأسود » . فإذا أضفنا هذه الرواية إلى سابقتها ، فإنها تؤيد أنّ أبا الأسود الدؤلي هو الواضع الأول لعلم الصرف بتعليم الإمام علي ، لأن كلمة « عصاتي » بدل « عصاي » مسألة من مسائل الصرف ، قال ابن منظور في اللسان : « قال الفرّاء : أوّل لحن سُمِعَ بالعراق هذه عصاتي ، بالتاء » . . ولا شك أن مسائل النحو والصرف كانت في نشأتها الأُولى تُبحث سوية غير منفصلة عن بعضها .

وكانت أبواب النحو مختلطة مع أبواب الصرف وكأنهما علم واحد ، ولم يستقل الصرف عن النحو إلا في مرحلة متأخرة بعد أن قطع النحو شوطاً طويلاً في سلّم التطور ، ولربّما كان معاذ قد أسهم في بداية مرحلة استقلال الصرف عن النحو، لا أنّه هو الواضع لعلم الصرف ـ كما يذهب كثير من العلماء ـ علماً أنّ مرحلة استقلال الصرف عن النحو تمت بشكل واضح في القرن الثالث الهجري ، وإلى ما قبل ذلك كانت مسائل الصرف تدوّن ضمن مسائل النحو وأبوابه رغم التمييز بين العلمين وتنقل الروايات الصرفيّة على أنها روايات في علم النحو ، من ذلك ما أورده السيوطي في البغية قال : « سئل أبو حاتم السجستاني في بغداد عن قوله تعالى : ﴿ قُوا أنفُسَكم ﴾ : ما يقال منه للواحد ؟ .

فقال : قِ . فقال : فالاثنين ؟ . فقال : قِيا . قال : فالجمع ؟ . قال قُوا قال : فاجمع لي الثلاثة . قال : قِ ، قِيا ، قوا .

قال : وفي ناحية المسجد رجل جالس معه قماش ، فقال لواحد : إحتفظ بثيابي حتى أجيء ومضى إلى صاحب الشرطة وقال : إني ظفرت بقوم زنادقة ، يقرؤون القرآن على صياح الديك ! فما شعرنا حتّى هجم علينا الأعوان والشرطة، فأخذونا وأحصرونا مجلس الشرطة . فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر ، وقد اجتمع خلق من خلق الله ينظرون ما يكون . فعنّفني وعذلني ، وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامّة بمثل هذا ؟ وعمد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة ، وقال : لا تعودوا إلى مثل هذا . فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً ، ولم يُقِمْ ببغداد . ولم يأخذ عنه أهلها ، وترك النحو بعد اعتنائه به حتى كأنّه نسيه »

ولا شك أن إسناد الأفعال إلى الضمائر إنما هو باب من أبواب الصرف ، ومع ذلك يوردون هذه الرواية وغيرها كثير في مسائل النحو ، مما يدلل على أن الفصل بين العلمين لم يكن قد تمّ قبل القرن الثالث الهجري .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الهوامش

(١) ص/٨٥ .

(٢) الجزء ٢/٢٩٠ ـ ٢٩١ .

(٣) أنظر طبقات النحويين واللغويين : ١٣٦ ـ ١٣٧ .